يغال كيبنيس *

١٩٨٢: لبنان، الطريق إلى الحرب[1]

في صباح أحد الأيام من شهر آب ١٩٨٣، دخل رئيس الوزراء مناحيم بيغن إلى مكتبه. "هل قرأت الأشياء التي كتبها يوئيل ماركوس؟" سأل سكرتير الحكومة دان مريدور، الذي كان في استقباله كالعادة، تطرق بيغن إلى ما نشره ماركوس وزعم فيه أن رئيس الوزراء لا يعرف كيف ينهي الحرب العبثية في لبنان. قال بيغن بعد أن رد مريدور بالإيجاب: "يوئيل ماركوس على حقّ".

حرص بيغن على قراءة مقالات ماركوس في "هآرتس". كرر ماركوس في يوم الجمعة ٢٦ آب، وتحت عنوان "هذه الحكومة لن تسقط - سوف تستمر في الوجود حتى تتلاشى"، في مقالة تضمنت انتقادات شديدة لبيغن وحكومته، الفروق بين "حكومة بلا رب" و "حكومة بلا رئيس" وختم بالقول: "تخيلوا كم أنهم لم يعرفوا ولم يفهموا عندما قرروا إجراءات حرب لبنان".

يومان بعد ذلك، وصل بيغن إلى مكتبه لعقد اجتماع مجلس الوزراء الأسبوعي، "يحيئيل، اليوم انتهى الأمر"، قال لرئيس هيئة الأركان "يحيئيل كاديشاي" قبل اجتماع الحكومة، سارت الجلسة وفقًا لجدول الأعمال المعد لها مسبقًا، لكن في نهايتها فاجأ بيغن الوزراء: "أود أن أدلي برسالة.... السبب وراء رسالتي هو شخصي تمامًا، لكن لم يعد بإمكاني الانتظار، لذلك أنا أقولها بموجب القانون. بالتأكيد في البداية أطلب المسامحة، والمغفرة. إذا أعطيت لي - لا أعرف. أصدقائي الأعزاء، أبلغ الحكومة بنيتي الاستقالة من منصبي كرئيس للوزراء، ولا يمكنني البقاء في هذا المنصب".

---

١ هذه ترجمة لمقدمة كتاب: يغئال كيبنيس، "١٩٨٢: لبنان، الطريق إلى الحرب" (تل أبيب: كينيرت للمنشورات، ٢٠٢٢): ص: ٩-٢٩. أنجز الترجمة ياسر مناع.

* مؤرخ إسرائيلي يهتم بتاريخ السياسية وجغرافيا الاستيطان.

"كان سيناريو الخروج للحرب مُعد مسبقًا. منذ اتفاق وقف إطلاق النار في ٢٤ تموز ١٩٨١، الذي وُقّع رسميًا بين إسرائيل ولبنان لكنه كان عمليًا بين إسرائيل منظمة التحرير، امتنعت منظمة التحرير الفلسطينية عن إطلاق النار تجاه المستوطنات الشمالية. في إسرائيل، اعتقدوا أن مهاجمة أهداف في بيروت من شأنه أن يدفع عرفات لانتهاك سياسة ضبط النفس، وبذلك يوفر لإسرائيل الذريعة لتنفيذ خطتها الحربية".

في اليوم التالي، بالطبع، تطرق ماركوس إلى الاستقالة، "في رأيي هنالك موعد محدد لبداية النهاية"، كتب، "بدأ هذا في ٦ حزيران ١٩٨٢ مع اندلاع حرب لبنان، من أسبوع إلى أسبوع كان التدهور محسومًا حتى وصل ذلك للنضوج الكامل".

وأضاف أنه "في مرحلة معينة – للأسف بعد فوات الأوان – استوعب معظم الوزراء أنه تحت ستار الشعارات لن يكون هنالك أي إجراء دون موافقة الحكومة، ذهبوا كمن وجد شيئًا بالصدفة. يمكن الافتراض أن بيغن أدرك قبلهم أنه قد وقع في الفخ؛ لأنه وحده يعرف حقًا ما يقال بأربع عيون في محادثاته مع وزير الدفاع، وهذا ما جعله يفهم الحاجة إلى الحرب ونتائجها المحتملة. لم يكن سيناريو [الحرب] كما تطور، السيناريو المؤكد الذي كان بيغن يميل إلى تصديقه".

هل حقًا تم إغراء بيغن؟ ماذا كان يعرف وماذا لم يكن يعرف؟ ظهرت هذه الأسئلة بالفعل أثناء الحرب، التي سميت "عملية سلامة الجليل"، وتطورت إلى "حرب لبنان" وأصبحت فيما بعد "حرب لبنان الأولى"، استمروا في سؤالهم واختبارهم سنوات بعد ذلك. في غضون ذلك، وضعت العلاقة بين بيغن ووزير الدفاع أريئيل شارون أمام اختبار قضائي وحسمت.

"قلت الحقيقة"، يمكن للصحافي عوزي بنزيمان أن يعلن بعد أن حكمت المحكمة بأن ادعاءه أن "بيغن يعلم أن شارون خدعه في حرب لبنان". لكن الحقيقة التاريخية أكثر تعقيدًا من تلك التي نوقشت خلال جلسة المحكمة.

"كتابكم هو نموذج نادر للكتابة التي تمت بعد فترة وجيزة من وقوع الأحداث وهي مبنية على معلومات موثوقة وشاملة، هل هناك مجال للتعمق بالبحث في هذا الموضوع؟"، سألت إيهود يعاري الذي كتب مع زئيف شيف "حرب سدى" في منتصف الثمانينيات. أجاب يعاري دون تردد "هناك، وأكثر كيف".

ولذلك، بعد الوقت الذي مضى، نحو ٤٠ عامًا، من الممكن أن يستند البحث المقدم في الكتاب إلى ثروة من الوثائق التي خُزنت في الأرشيفات في إسرائيل والولايات المتحدة، لدمج هذا القدر الكبير من التوثيق مع مصادر أخرى، وللتمعن في الصورة التي تبدو من خلالها بعد مدة من الزمن. ليس فقط إعادة الأحداث كاملة وبدقة فحسب، كما يعني ذلك ضمنيًا تجديد الروايات وتحديثها. يظهر من خلاله مكانة بيغن المركزية في صنع القرار على الطريق إلى الحرب وأثناءها. هكذا يتوفر أساس واسع لفحص صنع القرارات الوطنية والعلاقات المتبادلة بين صانعي القرار والجهاز المهني، العسكري والاستخباراتي، والفحص المعمق لهذه القضايا في حرب لبنان والعلاقة بين بيغن، شارون ورئيس هيئة الأركان. هذا النقاش الضمني المهم يدعو القارئ لتوسيعه بينه وبين نفسه بناءً على نتائج الكتاب لإقامة مناقشة العامة.

في يوم الجمعة ٤ حزيران ١٩٨٢، قبل الظهر، تم استدعاء العديد من الفرق الجوية للإحاطة بشأن مهمة جوية روتينية في لبنان، لم يعرفوا أن القنابل الثقيلة التي سيلقونها في الساعة ١٥:١٥ على مدرجات الملعب في جنوب لبنان ستنذر بقدوم حرب بعد يومين. إسرائيل خططت لهذه الحرب منذ أكثر من عام تحت اسم خطة "أورنيم". كان الجيش على مستوى القيادة، المقاتلين والجنود، مستعدين لها، في الأشهر التي سبقتها، كان الخروج إليها أمرًا ملحًا لدرجة الإرهاق.

كان سيناريو الخروج للحرب مُعد مسبقًا. منذ

اتفاق وقف إطلاق النار في ٢٤ تموز ١٩٨١، الذي وُقّع رسميًا بين إسرائيل ولبنان لكنه كان عمليًا بين إسرائيل منظمة التحرير، امتنعت منظمة التحرير الفلسطينية عن إطلاق النار تجاه المستوطنات الشمالية. في إسرائيل، اعتقدوا أن مهاجمة أهداف في بيروت من شأنه أن يدفع عرفات لانتهاك سياسة ضبط النفس، وبذلك يوفر لإسرائيل الذريعة لتنفيذ خطتها الحربية. لذلك، قبل نحو ستة أشهر من الهجوم، أدرج ملعب بيروت كهدف سيؤدي استهدافه إلى التحرك.

كان أعضاء الحكومة على علم بسيناريو بداية الحرب. عندما اجتمعوا في صباح يوم الجمعة نفسه، تم شرح جوهر قرارهم بالموافقة على ضرب الأهداف في لبنان. أولئك الذين عارضوا الخطوة الاستثنائية من عملية ضرب قوات منظمة التحرير الفلسطينية في جنوب لبنان بقوة، كانوا يعلمون أنهم يخوضون معركة جماهيرية ضد بيغن، شارون، ووزير الخارجية إسحق شامير، ورئيس الأركان رفائيل (رافول) إيتان.

أراد رئيس هيئة الأركان ووزير الدفاع أن يشرعوا في حرب قبل ذلك بوقت طويل، وقبل الانتهاء من استكمال إخلاء المستوطنات من سيناء، وبحلول نهاية نيسان ١٩٨٢، عرف بيغن كيف يتصدى للضغوط التي مارسها الاثنان. أراد منع الإضرار باتفاقية السلام مع مصر التي رسخت منع قيام دولة فلسطينية، كما يعلم أيضًا أن الإدارة الأميركية ستعارض مسار عملية عسكرية واسعة من قبل إسرائيل في لبنان، وبالتأكيد في وقت الحرب. في الوقت نفسه الذي ينفذ فيه اتفاق السلام، وبمجرد الانتهاء من الإخلاء أزيلت العوائق، وكل ما تبقى هو انتظار الذريعة. تم تحديد منتصف صيف ١٩٨٢ موعدًا نهائيًا لبدء الحرب، وهو موعد الانتخابات الرئاسية في لبنان، التصويت بالتنسيق مع إسرائيل وبمساعدتها سيؤدي إلى انتخاب بشير جميل لهذا المنصب.

حرص بيغن على إبلاغ الحكومة الأميركية أولًا بأول. "لا نريد أن نفاجئكم" كتب إلى الرئيس ريغان قبل أسبوعين من الخروج للحرب... لا نريد أن تشارك الولايات المتحدة في قرارنا بشأن عملية عسكرية قد تكون لا مفر منها تمامًا، خشية أن تتهمها الدول بما يسمونه بالتواطؤ مع إسرائيل". كما أنه لم يخفِ عنهم، حتى لو فعل ذلك بلغة ملتوية، أن هذا سيحدث في الأيام المقبلة. وصلت الرسالة إلى يد الرئيس في ٢٥ أيار، حيث كان شارون في واشنطن في ذلك الوقت، وفي ذلك اليوم عرض العمل المخطط له أمام وزير الخارجية.

لدى عودة شارة إلى إسرائيل، نشرت شعبة العمليات تقريرًا في برقية عاجلة عن تغيير اسم الرمز من "أورنيم" لـ "سلامة الجليل"، وكان جيش الدفاع الإسرائيلي في حالة تأهب مدة ٧٢ ساعة للخروج إلى الحرب. أجرى رئيس هيئة الأركان تقييمًا للوضع وأبلغهم عن نية تنفيذ سلسلة من العمليات "الهادئة والسرية"، التي ستدفع منظمة التحرير الفلسطينية للرد، وردًا على الرد "سيكون هنالك نشاط مكثف للقوات الجوية، ليس ضد المدنيين ولا ضد بيروت".

ألغى اغتيال السفير شلومو أرغوف في لندن الحاجة إلى عمليات هادئة وسرية، كان لإسرائيل مبرر، لكن التوقيت الذي ظهرت فيه كان قبل يومين من الجدول الزمني للحرب. لذلك بدأت إسرائيل بسلوك مرتجل. "لقد فعلنا "أورنيم" مدة عشرة أشهر وتوصلنا إلى خلاصة حول كيفية القيام بذلك، وفي النهاية نقوم بذلك بشكل مختلف"، قال أوري ساغي رئيس شعبة العمليات، وقد بدا عليه الإحباط، في صباح ٥ حزيران ١٩٨٢، كانت وظيفة ساغي ترجمة أهداف الحرب إلى خطة قتالية.

**

لم يغرِ ذلك بيغن، كانت الأهداف الأربعة للحرب مستمدة من رؤيته "سلامة الجليل"، لم يكن الرد على التهديد الأمني لمنظمة التحرير الفلسطينية على المستوطنات الشمالية، سوى مركب واحد من دوافعه. كي لا تكون "تريبلينكا"، حيث سعى إلى القضاء على البنية التحتية العسكرية لمنظمة التحرير الفلسطينية ومقرها لبنان، وخاصة في بيروت، التي كانت بمثابة قاعدة عمليات إرهابية ضد إسرائيل وضد أهداف يهودية في العالم.

من أجل إزالة التهديد على السيطرة الإسرائيلية على كل أراضي الضفة الغربية، أراد القضاء على النشاط السياسي لمنظمة التحرير الفلسطينية، التي تهدف إلى إقامة دولة فلسطينية، وأوضح بيغن نواياه بخصوص عرفات "سنصل إلى بيروت ونقبض على الملتحي وسيحاكم حسب قانون ايخمان". الهدفان الآخران كانا متداخلين: هدف انتخاب البشير كرئيس يوقع اتفاقية سلام مع إسرائيل، الذي لا يمكن تحقيقه طالما السوريون موجودون في لبنان، ومن أجل إبعاد قواتهم

كان على جيش الدفاع الإسرائيلي أن يصل إلى بيروت، طريق بيروت - دمشق.

رأى بيغن وشارون أهداف الحرب عينًا بعين، كان بيغن مدركًا سلبيات زميله بالإضافة إلى إيجابياته. لم يعين شارون وزيرًا للدفاع عندما استقال عيزر وايزمان من منصبه في أيار ١٩٨٠، في موعد لم يزل فيه تنفيذ اتفاقية السلام المصرية بعيدًا، لكنه لم يتردد في القيام بذلك بعد عام تقريبًا، عندما كان واضحًا للجميع أن إسرائيل كانت تستعد للحرب. في يوميات لقاءاته برزت منذ تموز ١٩٨١ لقاءاته العديدة الشخصية مع شارون. قبل أيام من تعيينه في المنصب، سمع موقفه في اجتماع لمجلس الوزراء: "هدفنا يجب أن يكون القضاء على الإرهاب في لبنان كقاعدة لنشاطاته في إسرائيل والقضاء على المنظمات الإرهابية في لبنان، أو القضاء عليه كقاعدة سياسية".

كانت أهدافهما بعيدة كل البعد عن تلك التي كانت الحكومة على استعداد للموافقة عليها عندما عرضها بيغن عليها، وتلك المعارضة بقيادة شمعون بيريس وإسحق رابين وحاييم باراليف، كانت مستعدة لتأييدهم.

فوجئ بيغن بعدد من التحفظات عندما عُرضت خطة أورنيم على الوزراء في ٢٠ كانون الأول ١٩٨١، وبعد نصف عام من ذلك، في ٥ حزيران، خلال جلسة الحكومة الخاصة التي عقدت في منزله، قال: "الحرب - تعرفون دائمًا كيف تبدأ لكنكم لا تعرفون كيف تنتهي. لكنني أعلم أنه لن يتم عمل شيء دون قرار الحكومة". هو التزم ذلك. من الممكن أن بيغن يأمل بأن تكون الحرب محدودة وتنتهي بعد يومين، وأن تتحقق أهدافها من خلال عملية سياسية تجري بعدها. ومع ذلك، يبدو أيضًا أنه قد أخذ في الحسبان أن العمل الذي يبدأ بتحديد أهداف مشتركة له ولشارون نهايته تحركات حرب متدحرجة ستؤدي لموافقة الحكومة وسيجد أعضاء الحكومة صعوبة في معارضتها. قال لهم عشية الحرب "يجب أن تكونوا على استعداد إلى أقصى حدّ".

إدارة الحرب كإجراء متدحرج مطلوب لبيغن ذريعة سياسية أيضًا، وبهذه الطريقة كان من الممكن تقديمها كعملية محدودة أمام الإدارة الأميركية والرأي العام العالمي وصد الضغوطات ضد استمرار القتال. بهذه الطريقة كان من الممكن إخفاء الاستعدادات للمواجهة مع سورية وإظهار مظهر الرد المناسب والذريعة الذي من أجلها خاضت إسرائيل الحرب. أوجد هذا السلوك منذ بداية القتال فجوة واضحة بين القرارات والأهداف وخطط تحقيقها وإجراءات تنفيذها، وأثار الاستياء والانتقاد لها، لقد تجاوزوا النظام السياسي.

يمكن أن الاتفاق مع بيغن على الأهداف التي أراد تحقيقها في الحرب، ويمكن أن ينتقد على ذلك، كما أن سلوكه أيضًا في فترات مختلفة يستحق الفحص والنقد. ومع ذلك، من الوثائق الأرشيفية الجديدة والمثيرة، يبدو أن بيغن كان يناور بين مبادئه وولائه لعملية صنع القرار المناسبة ومستوى المكر والذكاء المطلوبة من قائد يقود أمة إلى حرب عسكرية وسياسية. هو تغلب على العقبات والساعين لإفشاله الذي وقفوا في طريق تنفيذ اتفاق السلام مع مصر، ولفعل ذلك قبل أن تتوجه إسرائيل إلى الحرب في لبنان، كان بيغن مصغيًا للآخرين، لكنه فريد في رؤية الصورة الشاملة والحاسمة. كان يقدر القادة العسكريين، لكنه لم يتردد في العمل ضد مواقفهم أو نصائحهم. هو مشغل "مطبخ القرارات" وضم إليه شارون، وشامير ورئيس هيئة الأركان، لكنه اتخذ قرارات وحده، وعرف كيفية الحصول على موافقة حكومته عليها.

في قرار عملية "سلامة الجليل"، كلفت الحكومة الإسرائيلية جيش الدفاع الإسرائيلي بـ "إخراج جميع مستوطنات الجليل من مرمى نيران الإرهابيين، مراكزهم، مقارهم وقواعدهم في لبنان". أدى هذا القرار في وقت قصير إلى الموافقة أيضًا على "القرار الإضافي" - الاجراءات التي كانت مطلوبة لتنفيذ قرار الحكومة هذا، وخلال ذلك السماح بتحقيق أهداف إضافية. الحكومة هي التي وافقت على استمرار الجيش الإسرائيلي في التقدم نحو طريق بيروت - دمشق، لمحاربة السوريين ومهاجمة بطاريات صواريخهم في البقاع. هي التي وافقت على إعلان وقف إطلاق النار في ١١ حزيران ومن ثم استمرار القتال - استكمال "الزحف" نحو طريق بيروت - دمشق، وصولًا إلى بيروت، ومحاصرة غرب المدينة وضرب الجزء الذي كان يقع تحت سيطرة منظمة التحرير الفلسطينية، هي التي وافقت بعد مقتل البشير حتى لو بعد فوات الأوان، على أوامر بيغن وشارون باحتلال بيروت كلها، بما فيها دخول الميليشيات المسيحية إلى مخيمي صبرا وشاتيلا.

"كان بيغن يجيد المناورة بإجراءاته أمام الحكومة الأميركية. وبهذه الطريقة، تمكن من توفير الوقت اللازم لجيش الدفاع الإسرائيلي لتحقيق أهدافه العسكرية: السيطرة على طريق بيروت - دمشق، إبعاد السوريين إلى الوراء ٤٠ كيلومترًا من الحدود الإسرائيلية، احتلال شرق بيروت ومحاصرة غربها، ولاحقًا طرد منظمة التحرير من لبنان".

كان بيغن يجيد المناورة بإجراءاته أمام الحكومة الأميركية. وبهذه الطريقة، تمكن من توفير الوقت اللازم لجيش الدفاع الإسرائيلي لتحقيق أهدافه العسكرية: السيطرة على طريق بيروت - دمشق، إبعاد السوريين إلى الوراء ٤٠ كيلومترًا من الحدود الإسرائيلية، احتلال شرق بيروت ومحاصرة غربها، ولاحقًا طرد منظمة التحرير من لبنان.

**

"قصة لبنان ليست الموساد، من الذي دفع رفائيل ودفعني، للأفضل أو للأسوأ"، أخبرني أفيغدور (يانوش) بن غال، قائد المنطقة الشمالية في السنوات ١٩٧٨-١٩٨١، نافيًا الادعاء بأن الموساد هو الذي جرّ إسرائيل إلى الحرب لبنان. يانوش صادق. الموساد لم يدفع للاتصال مع المسيحيين".

رأى رئيس هيئة الأركان و بن غال في عملية عسكرية واسعة النطاق ضد منظمة التحرير في لبنان الإجابة على المشكلة الأمنية التي طلب منهم تقديمها، لقد رأوا في المسيحيين أنهم "ممتلك"، وفقًا لتعريف يانوش. أكثر مما أرادوا مساعدتهم، أرادوا استخدام هذه المساعدة كذريعة لبدء إجراء قتالي يسمح للجيش الإسرائيلي بالتحرك.

مثلًا رئيس "أمان" يهوشع ساغي، ورئيس الموساد إسحق (حَكا) حوفي عارضا ذلك بشكل مستمر، نائبه ناحوم أدموني، أيد العلاقة. وبذلك انقسمت المواقف في المستويات الأدنى منهم، ولعب الموساد دورًا أساسيًا في إقامة العلاقة. يبدو إلى حدّ كبير أن الرواية القائلة بأن "قصة لبنان هي الموساد" ترسخت بسبب موقف وأنشطة دافيد (دييف) كمحي، رئيس شعبة "تيفل" في الموساد، الذي كان شخصية محورية في إقامة علاقة بين إسرائيل والمسيحيين. وبسبب إدارته هذه العلاقة أبعد حوفي دييف من الموساد عامين قبل الحرب. على الفور تم "تبني" كمحي من قبل وزير الخارجية شامير الذي عينه مديرًا عامًا لمكتبه، واستمر في التأثير على علاقات إسرائيل مع المسيحيين. في حين أن بيغن و(حاكا) كانا على علم بأنه في بعض الأحيان لم يتم إرسال رسائل إلى المسيحيين على النحو الذي طلبه بيغن، لكن "بلغة الموساد الإنكليزية" كما عرفها بيغن.

**

كان لبيغن أيضًا لحظات انحدار. كان الأميركيون على دراية بالتقلبات في مزاجه، وكان السفير سام لويس، الذي كان كثيرًا ما يجتمع مع رئيس الوزراء ويتحدث معه، يشير إلى ذلك في تقاريره. أخبر لويس ما إذا كان بيغن مكتئبًا وغير مبالٍ، أو أنه يتمتع بـ "صحة نفسية"، ثم يعمل ١٩ ساعة في اليوم دون انقطاع ... ويعرض كل مواهبه القديمة في الفكاهة الساخرة والمسرح السياسي، أو بعبارة أخرى، فهو "لا نظير له في الجدل السياسي".

تؤكد الطريقة التي أدار بها بيغن أحداث ربيع ١٩٨١ - "أزمة زحلة" و "أزمة الصواريخ" - وتوضح انطباع لويس. بيغن، الذي كان وزير الدفاع آنذاك أيضًا، كان مطلوبًا منه أن يقرر أولًا ما إذا كان عند وعده بمساعدة المسيحيين ونشر سلاح الجو في زحلة ضد السوريين، وما إذا كان سيهاجم بطاريات الصواريخ التي وضعها السوريون في البقاع فيما بعد.

هنا أيضًا مناورة، هذه المرة بين دعوات المسيحيين للمساعدة وتأييد يانوش ورفائيل لهم، وبين مواقف رؤساء "أمان" والموساد المعارضة لموقف رئيس هيئة الأركان. على الرغم من أنه أعرب عن تعاطفه مع صرخات انكسار حلفاء إسرائيل، اختار بيغن ضبط

"أتاح الجيش الإسرائيلي للكتائب، بموافقة وزير الدفاع، الدخول إلى مخيمات اللاجئين، وأبلغت الحكومة بذلك ولم ترَ أنها مناسَبة لوقف العملية. ارتُكبت مجزرة بحق سكان المخيمات ومعظمهم من النساء والأطفال، صدمت العالم والمجتمع الإسرائيلي، وتطلبت لجنة رسمية للتحقيق في ظروفها".

النفس، كان الحفاظ على اتفاق السلام مع مصر أحد أسباب ذلك فقط. السبب الآخر كان أكثر أهمية وسرية: فهو يخشى ألا يسمح هجوم السوريين في لبنان بتنفيذ العملية الناشئة لتدمير المفاعل النووي في العراق. رأى في تدمير المفاعل مهمة تاريخية وكان مصممًا على إنجازها.

الضغوطات التي مارستها الإدارة الأميركية من أجل منع التصعيد ساعدت بيغن. كان بإمكانه تقديم ضبط النفس كبادرة تجاه الولايات المتحدة وحرص على عظيم الثقة التي نالها. عندما نفدت أعذاره لسياسة التقييد بادر بإرسال مبعوث أميركي للتعامل مع الأزمة، وهكذا، بإرسال فيليب حبيب، يمكن أن يعلل استمرار التقييد أمام السوريين، أولًا حتى تدمير المفاعل في ٧ حزيران ١٩٨١، ثم حتى موعد تنفيذ اتفاقية السلام مع مصر.

**

حكاية طريق الحرب في لبنان كان مصيرها أن تنتهي في اليوم الذي بدأت فيه. لكن، فإن الوثائق المتعلقة بالسلوك السياسي وعملية صنع القرار اللاحقة قدمت إجابات واضحة على الأسئلة التي لم يتم حلها بشكل كامل. لذلك، خصص الجزء الثالث من الكتاب لمناقشة الأحداث والقرارات السياسية في الفترة منذ بداية الحرب منتصف أيلول ١٩٨٢ مع اكتمال احتلال بيروت.

قاد شارون وبيغن الجيش الإسرائيلي لاغتيال عرفات، وإلحاق أضرار جسيمة بالبنية التحتية العسكرية لمنظمة التحرير الفلسطينية، وإبعاد السوريين عن لبنان، وتتويج البشير كرئيس متعاون. بعد ١١ أسبوعًا من القتال تم إجلاء عناصر منظمة التحرير بقيادة عرفات من بيروت بموجب الاتفاق الذي نجح المبعوث حبيب في بلورته.

في ٢٣ آب ١٩٨٢ قبل أسبوع من اتمام الإجلاء برعاية جنود الجيش الإسرائيلي، تم انتخاب البشير رئيسًا للبنان، وكان على وشك أن يبدأ فترة ولايته بعد شهر من ذلك. بيغن وشارون أبلغوه بمهمتين يتعين القيام بهما على الفور: توقيع اتفاق سلام مع إسرائيل واستكمال الإجراء القتالي الإسرائيلي بالسيطرة على غرب بيروت. المهمة الأولى التي طالب بها بيغن رفضها البشير في البداية رفضًا قاطعًا. وقبل المهمة الثانية بعد أن وعد شارون بموافقة بيغن ودعم شامير لتوسيع عملية الجيش الإسرائيلي ضد السوريين والسماح للإدارة الجديدة بالسيطرة على جميع أرجاء الدولة، بما في ذلك جنوب لبنان والمنطقة التي يسيطر عليها السوريون. كما تم الاتفاق أيضًا على تعيين فريق مشترك لمناقشة اتفاقية السلام.

في ١٤ أيلول، بعد أقل من ٤٨ ساعة على الاتفاق، قتل البشير على يد السوريين. تُرك بيغن وشارون بدون شريك، وأمروا الجيش الإسرائيلي على الفور – كما ذكر دون موافقة الحكومة – بالسيطرة على بيروت الغربية أيضًا. وفي اليوم التالي أبلغ بيغن الأميركيين بذلك. "إطلاقًا لم نقل بأننا لن ندخل [بيروت الغربية]، إذا تم قتل البشير الوضع سوف يتغير في لبنان". أجاب السفير أرنس على الادعاء بأن إسرائيل لقد ضللتهم بحسب بروتوكول المحادثة التي سجلها السفير بنيامين نتنياهو.

أتاح الجيش الإسرائيلي للكتائب، بموافقة وزير الدفاع، الدخول إلى مخيمات اللاجئين، وأبلغت الحكومة بذلك ولم ترَ أنها مناسَبة لوقف العملية. ارتُكبت مجزرة بحق سكان المخيمات ومعظمهم من النساء والأطفال، صدمت العالم والمجتمع الإسرائيلي، وتطلبت لجنة رسمية للتحقيق في ظروفها. وبناء على توصياتها تم عزل شارون من منصبه، فيما بقي بيغن في مكانه. لكن لم تقم لجنة تحقيق رسمية في إجراءات إسرائيل وسلوكها.

ياسر عرفات يتفقد مواقع القتال في بيروت خلال التصدي للاجتياح الإسرائيلي. (أ.ب)

منذ البداية، لم يتجاهل بيغن الحرب. قال للوزراء عشية غزو لبنان: "من الواضح لي أنه ستكون هناك خسائر في الأرواح"، بل إنه أظهر وعيًا بالثمن: "ممنوع ، سيكون هناك. المزيد من المنازل في حداد. ومع ذلك ، فإننا ننتمي إلى جيل أظهر استعدادًا للتضحية. عندما يحتاج شعب إسرائيل إلى الحماية، لا توجد طريقة أخرى". ثم أضاف: "أعتقد أنني لست بحاجة إلى تعليم رئيس الأركان أننا يجب أن نهدف إلى أن يكونوا في حده الأدنى". من ناحية أخرى، يبدو أنه لم يأخذ في الحسبان مدى تأثير أحداث الحرب وانعكاساتها عليه وعلى المجتمع الإسرائيلي وعلى الفكر الجمهور العالمي.

لم يكن لهذه الحرب نهاية. مدة ١٨ عامًا بقي جنود الجيش الإسرائيلي في لبنان يواصلون الحفاظ على سلامة الجليل، وتحول هذا البقاء مع مرور الوقت إلى قتال ضد الشيعة تحت قيادة حزب الله الذي يعمل بدعم من سورية وبتدخل متزايد من إيران. لقد دفع كثيرون ثمن الحرب بمن فيهم قادتها.

جذور حرب لبنان

لماذا هاجمت إسرائيل لبنان في حزيران ١٩٨٢، احتلت نصفه الجنوبي والعاصمة بيروت؟ لماذا تصرفت على هذا النحو ضد دولة نأت بنفسها في حرب أيار ١٩٤٨، ولم تشارك في حرب الأيام الستة ولم تشارك في حرب يوم الغفران؟ الجواب معقد، لكن معظمه، إن لم يكن كله، مستمد من ضعف لبنان.

في العام ١٩٢٢، تلقت فرنسا من عصبة الأمم تفويضًا للسيطرة على سورية ولبنان وأقامت "لبنان الكبيرة"، وهي دولة مكونة من مناطق تختلف اختلافًا كبيرًا بغض النظر عن قربها الجغرافي. أوجدت فرنسا من خلال الفصل بين لبنان وسورية كيانًا سياسيًا مؤلفًا بشكل مفكك من مجموعات دينية وطائفية، ولاحقًا أيضًا من مجموعات أيديولوجية وسياسية مختلفة، مما

خلق تهديدًا دائمًا لنسيجها الاجتماعي وقدرة الحكومة المركزية على العمل والسيطرة عليه. دفع هذا الضعف القوى الخارجية للتدخل في ما يحدث في لبنان وتحويله إلى ساحة صراع بين القوى الأجنبية وساحة صراع خلفية بين القوى. كان التدخل السوري بارزًا كثيرًا، لكن إسرائيل تصرفت بهذه الطريقة على مرّ السنين.

في العام ١٩٣٢، بسبب الصراعات بين المجموعات المختلفة في الدولة، اضطر المفوض السامي الفرنسي إلى حل البرلمان. في آذار ١٩٤٣، تم تجديد نشاطها على أساس "معاهدة وطنية"، قسمت السلطة السياسية بين المسيحيين والمسلمين. نصت الاتفاقية على أن يكون توزيع المقاعد في البرلمان نسبيًا من ٦:٥. يعني أنه من بين كل ١١ مقعدًا، ستُمنح ستة للمسيحيين وخمسة للمسلمين والدروز. سيظل رئيس الدولة مسيحيًا دائمًا وسيعين رئيس للوزراء يكون مسلمًا سنيًا. رئيس مجلس النواب مسلم شيعي ووزير الدفاع درزي وقائد الجيش مسيحي. بعد بضعة أشهر، في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٣، أصبحت لبنان دولة مستقلة، اعتبرها المؤتمر الوطني جزءًا من العالم العربي.

في العام ١٩٤٨، أضيف اللاجئون من فلسطين إلى فسيفساء لبنان الطائفية الهشة، مما زاد من مركباتها والخلافات السياسية الداخلية اللبنانية. بعد عقد من الزمان، في آذار ١٩٥٨ ، اندلعت حرب أهلية في البلاد بين المسيحيين وأنصار الرئيس كميل شمعون والمسلمين. واعتبرت الولايات المتحدة الحرب امتدادًا للصراع بين الأقطاب وأرسلت مشاة البحرية إلى لبنان. أدى هذا التدخل في أيلول ١٩٥٨ إلى نهاية الحرب.

عزز فشل الصراع الدول العربية العسكري ضد إسرائيل في حزيران ١٩٦٧ الحرب الشعبية ضد الدولة اليهودية. لعبت منظمة التحرير الفلسطينية دورًا مركزيًا فيها، واستغلت لبنان لتنفيذ أعمال إرهابية ضد إسرائيل وضد أهداف إسرائيلية ويهودية في العالم. في العام ١٩٦٩، فرضت جامعة الدول العربية "اتفاقية القاهرة" على لبنان، مما أجبر الدولة على منح الفلسطينيين حرية التنظيم وحرية العمل المدني والعسكري. تحت رعاية الاتفاقية أنشأت منظمة التحرير الفلسطينية "دولة داخل دولة" في لبنان، وشكلت الاتفاقية أساسًا شرعيًا للنضال ضد إسرائيل، مما ألحق أضرارًا بالغة بسيادة لبنان.

أدت أحداث العام ١٩٧٠ في الأردن - "أيلول الأسود" - إلى طرد منظمات منظمة التحرير الفلسطينية من الأردن، وبقيت لبنان كمضيف رئيس وشبه حصري للنضال الوطني والعسكري والسياسي للفلسطينيين. انتقل معظم عناصر منظمة التحرير إلى لبنان، واستقروا في مخيمات اللاجئين في بيروت وجنوبها، وسيطروا على المنطقة في الجنوب الشرقي، والتي لُقِبت بالتالي بـ "فتح لاند". بادر المقر الرئيس في بيروت بعمليات في إسرائيل وحول العالم. خطفت طائرات ركاب للمطالبة بالإفراج عن أسرى فلسطينيين. وردت إسرائيل بنشاط عسكري على الأراضي اللبنانية لغرض العقاب والردع والإحباط.

في نيسان ١٩٧٥، اندلعت شرارة حرب أهلية مرة أخرى في بيروت، وهذه المرة بين المسيحيين والفلسطينيين و"الجبهة اليسارية" - الحلفاء اللبنانيون لمنظمة التحرير الفلسطينية. ظهرت في الحرب الأهلية مجازر نفذت ضد المدنيين من كلا الجانبين. أضعفت المجتمع اللبناني، فككت الحكومة المركزية وجعلت الدولة عرضة لتدخل أطراف خارجية بشكل أكبر.

أدت محنة المسيحيين إلى طلب المساعدة من إسرائيل. كان أول من فعل ذلك رجال الرئيس السابق شمعون، في حزيران ١٩٧٥. في آذار ١٩٧٦ ، توجهت مجموعتان أخريان إلى إسرائيل: السكان المسيحيون في جنوب لبنان وميليشيا عائلة جميل - الكتائب. قدمت إسرائيل للمسيحيين في الجنوب مساعدات اقتصادية ومساعدة في الخدمات المدنية، كما أقامت تعاونًا عسكريًا مع قوات سعد حداد (التي عرفت في ما بعد باسم جيش لبنان الجنوبي). وكانت المساعدة للمسيحيين في الشمال أكثر محدودية، في ضوء قرار رئيس الوزراء رابين بأن إسرائيل ستساعد المسيحيين على مساعدة أنفسهم. لذا كانت المساعدة فقط من خلال الوسائل القتالية، وليس بالقتال نفسه.

أوضح إيغال ألون، نائب رابين ووزير الخارجية، الاعتبارات الخاصة بذلك: "إسرائيل لن تتدخل في لبنان ... ليس لدي شك في أن (المسيحيين) افترضوا أننا في موقف معين سنأتي لمساعدتهم ... كانوا سيوجدون مثل هذا الوضع عن قصد ولديهم مصلحة في جرنا إلى حرب... وليس لدي شك في أنه لو كان التطور على هذا النحو، لوجدنا أنفسنا عالقين في فيتنام، ربما يثيرون حربًا شاملة".

يضاف إلى محنة المسيحيين تخوف الولايات المتحدة من انتصار منظمة التحرير الفلسطينية

وجبهة اليسار بسبب علاقتهما بالاتحاد السوفيتي. استغلت سورية الوضع بكل مكوناته. بناء على طلب المسيحيين دخلت القوات السورية لبنان لحمايتها، وقد تمت رعاية هذه الخطوة لاحقًا من قبل جامعة الدول العربية "قوة الردع العربية"، التي كانت كلها تقريبًا قوة سورية. كما استجاب السوريون لطلب الولايات المتحدة ووصلوا من خلال وساطتها إلى تفاهم مع إسرائيل على "الخط الأحمر" الذي رسم الحدود ورسم سيطرة كل من البلدين في لبنان، وأدت هاتان الخطوتان إلى إنهاء الحرب الأهلية في لبنان في تشرين الأول ١٩٧٦، لكن سرعان ما نشأ التوتر بين المسيحيين ومنقذيهم السوريين. في هذا الواقع ، بدأ إلياس سركيس فترة ولايته كرئيس، هذا المنصب الذي شغله حتى أيلول ١٩٨٢.

في أيار ١٩٧٧، في الوقت نفسه الذي حدث فيه التحريض المسيحي ضد السوريين، حدث الانقلاب السياسي في إسرائيل وحلت حكومة بيغن محل حكومة رابين. في بداية طريقه السياسية كرئيس للوزراء قدم بيغن رؤية مختلفة، وبالتالي مسارًا مختلفاً في العمل، تجاه الوجود السوري في لبنان. في ٨ تموز ١٩٧٧، فور تشكيل الحكومة الجديدة، قال لسفير الولايات المتحدة في إسرائيل: "أفهم أن الولايات المتحدة تدعم الرئيس سركيس والوجود السوري في لبنان. إسرائيل تدعم سركيس لكن الوجود السوري في لبنان هو أمر آخر". ومع ذلك، بسبب الزيارة الدراماتيكية التي قام بها الرئيس السادات إلى القدس في تشرين الثاني ١٩٧٧ وبداية عملية السلام بين إسرائيل ومصر، كانت مساعدة إسرائيل للمسيحيين ضد السوريين خاضعة إلى الرغبة في عدم الإضرار بالعملية التاريخية.

كان هدف منظمة التحرير الفلسطينية معاكسًا لذلك، فقد حاولت المنظمة الإضرار بعملية السلام قدر المستطاع وزادت عملياتها من لبنان ضد إسرائيل، وسارعت إسرائيل في الرد على أحدها وهو الهجوم على الطريق الساحلي، في آذار ١٩٧٨ شن الجيش الإسرائيلي "عملية الليطاني"، واحتل الأراضي في جنوب لبنان حتى نهر الليطاني وسيطر مدة ثلاثة أشهر دمر خلالها البنية التحتية العسكرية لمنظمة التحرير، والتزمت سورية بمذكرة التفاهم مع إسرائيل ولم تتدخل في القتال في جنوب لبنان.

خلال تلك الأشهر، اتسعت الخلافات بين الجماعات المسيحية في لبنان وتصاعدت إلى عنف شديد. خلال تلك الصراعات، بنى بشير جميل مكانته كزعيم مسيحي أعلى في البلاد. كان له ولإسرائيل المصالح نفسها: طرد السوريين ومنظمة التحرير الفلسطينية من لبنان، ونتيجة لذلك، أصبح التعاون بين الطرفين أقوى أكثر فأكثر، واندمج بطريق إسرائيل إلى الحرب.